



كرّمته المغرب ضمن أفضل 120 صانعاً تقليدياً

المعلم عمر:

أخشى أن تنقرض حرفة صناعة بنادق البارود



سبت جزولة- عبد الرحيم الخصار

يعود تاريخ استخدام البارود في العالم العربي إلى القرن السابع، حيث كان يوظف إما في الحرب على شكل كرات وقذائف ناسفة، وإما للتسلية من خلال الألعاب النارية. لكن أول استعمال عربي للبارود في البنادق بالتحديد كان في القرن الرابع عشر دفاعا عن غرناطة قبل سقوط الأندلس، وكان هذا النوع من البنادق يسمى «القربينة».

مع تعاقب السنين تطورت وسائل الحرب، لكن بنادق البارود ظلت رمزا تراثيا كبيرا في الثقافة العربية: ثقافة الحرب من جهة، وثقافة الفرجة أيضا، حيث تحول استعمال هذه البنادق في عدد من الأقطار العربية إلى مضمار الفروسية والخيالة. في المضمار المغربي مثلا وخلال المواسم الشعبية التي تتزامن مع فصلي الربيع والصيف، تصطف الخيول المزينة بالسروج والأحزمة المنمقة ويركبها شباب وشيوخ من الفرسان المهرة، تتهادى وتضرب بحوافرها الأرض استعدادا للركض، وما إن يصرخ المقدم صرخته الأولى حتى تشرع الخيول في التحرك ببطء، ومع ارتفاع صوته يرتفع إيقاع السرعة، تركض الأفراس والأحصنة ويقوم الخيالة بحركات مركبة تهز مشاعر المولعين المحيطين بالمضمار، وحين يصيح المقدم صيحته الكبرى يضغطون في اللحظة ذاتها على الزناد، فتسمع طلقات البنادق كلها كأنها طلقة واحدة يتردد صداها في الفضاء وتعقبها زغاريد النساء وتهاليل الرجال في نشوة شعبية كبرى.

يتحرك الفرسان كالأبطال ويصفق لهم الجميع، ويتلقون التهاني والتبريكات والجوائز والأوسمة، لكن رجلا مهما يعد بمثابة سبب كبير في صنع هذه الفرجة يبقى في الظل، مختفيا عن أنظار الجمهور ومكتفيا وهو في الظل بالدفع بما يصنع هذه المتعة نحو الضوء. إنه صانع هذه البنادق المرصعة بالفضة والذهب، والتي تلمع في يد الفرسان كلما حل موسم من مواسم «التبوريدة».

حين تصل إلى مدينة آسفي الواقعة على المحيط الأطلسي جنوب العاصمة بحوالي أربع ساعات، ستجد منعرجا يقودك حوالي عشرين دقيقة إلى مدينة صغيرة اسمها «سبت جزولة»، هنا توجد ورشة المعلم عمر الرجل البالغ من العمر خمسا وسبعين سنة، قضى ستة عقود منها وأكثر في صناعة بنادق البارود.

في المغرب يطلقون لقب «المعلم» على الصانع الماهر، والمعلم عمر رجل يستقبلك بابتسامة، ولا يشرع في الحديث معك عن التفاصيل حتى تشرب كأس شاي يعده بنفسه على الجمر.

ورشته صغيرة، لكنه صنع فيها عددا كبيرا من البنادق أو ما يسميها المغاربة «المكاحل»، يقضي النهار هنا منذ طلوع الشمس إلى غروبها دون ملل ودون أن يأخذ يوما واحدا للراحة من أيام الأسبوع، لا يقفل الورشة إلا أيام العيد أو حين يذهب للصلاة في المسجد القريب منه. مؤخراً، تم اختيار المعلم عمر، واحداً من أفضل 120 صانعاً تقليدياً كرمتهم وزارة الصناعة التقليدية في احتفال كبير في العاصمة المغربية الرباط، في هذه المناسبة التقينا المعلم عمر وكان لنا معه هذا الحوار:

من علمك صنعة البنادق؟ متى؟ وكيف؟

جاء أبي وعمي من الجنوب الأمازيغي في عشرينيات القرن الماضي، وقد نشأتُ مع عمي منذ أواسط الأربعينيات، كان يصنع بنادق بارود عادية، لكنه كان يستعين بحرفيين آخرين، إذ لم يكن قادرا بمفرده على صناعة جميع أجزاء البندقية، فهناك عناصر معقدة



فرقة خيالة

تهم عملية التركيب. جلست مع عمي حوالي تسع سنوات، وقد استفدت منه كثيرا. ومنذ 1954 بدأت أشتغل بمفردي، وكانت البدايات في قريتي ثم انتقلت بعد ذلك إلى هذه المدينة الصغيرة ولا زلت فيها إلى حد الآن.

من أين تجلب المواد الأولية التي تشتغل بها؟ وما طبيعتها؟

المواد الأولية هي : الخشب والفولاذ ولكن صنفيهما يستقدمان من أوروبا «غالبا فرنسا» ، وتتم معالجتهما وتهيئتهما بالدار البيضاء، أما القطع الأخرى فتكون من الفضة وأحيانا الذهب. وأنا أقوم بصنع جميع هذه القطع: الزناد-المدك-الخواتم-الدراع-المنقوشات

هل يوجد صناع كثيرون يمارسون نفس الحرفة بالمغرب؟

يوجد حرفيون لكن عددهم قليل، وتتباين درجات كفاءاتهم من واحد لآخر، يتمركزون غالبا في مراكش وفاس، وهاتان المدينتان معروفتان بالصناعة التقليدية وبمختلف أشكال التراث، لكن ليس من السهل العثور على حرفي أصيل فأغلب الذين مارسوا هذه المهنة قد توفوا وقل من ترك من يخلفه.

هل هناك من يصنع البنادق التقليدية بالإقليم الذي تنتمي إليه أنت؟

لا، أنا هو الشخص الوحيد الذي يزاول هذه الحرفة في إقليم آسفي.

ماذا عن زبائنك؟

يتوافد الزبائن من مختلف المدن المغربية شمالا وجنوبا شرقا وغربا، وهم من مختلف الأعمار شيوخا وشبابا، أغلبهم



يمارسون الفروسية التقليدية، وهناك فئة قليلة تطلب بنادق من أجل الزينة حيث تعلق على شكل ديكورات في الصالونات المغربية التقليدية.

وماذا عن الأثمنة؟

تختلف الأثمان حسب طبيعة المواد الأولية، فالبندقية العادية الخالية من المعادن الثمينة تبلغ قيمتها حوالي 5000 درهم» 600 دولار»، بينما يصل ثمن البندقية المرصعة بالفضة إلى 1500 دولار أما التي تحتوي على الذهب فتصل قيمتها إلى حوالي 2500 دولار وأكثر حسب وزن الذهب. هناك زبائن يساومون ويطلبون أن نخفض الثمن، لكن معظم العشاق والمولعين بالفروسية لا يناقشون الثمن. تعرف؟ هناك فرسان فقراء يحرمون أنفسهم من أشياء كثيرة، ولكنهم ينفقون بسخاء على الفرس وعلى البارود وما تتطلبه مواسمه.

هل سبق أن تلقيتم دعما ماديا من جهات رسمية؟

لا، لم أتلق أي دعم حقيقي طوال ستة عقود من العمل وأكثر. يكفيني أنني أحس بفرح غامر حين أنهي صنع بندقية جديدة تكون بمثابة تحفة، حتى أنني كثيرا ما أتردد في بيعها، أريد أن أحتفظ بها لنفسي، ولولا متطلبات الحياة اليومية لتركت الكثير من البنادق معلقة هنا على جدران ورشتي، يكفي أن يراها الزوار وأن أراها أنا أيضا.

ماذا عن الملتقيات والمشاركات؟

سبق وأن شاركت في عدد من المعارض والملتقيات المحلية والجهوية والوطنية، ولم يسبق أن شاركت خارج المغرب، ولا أعرف



فارسة من الصحراء المغربية



فرقة خيالة نسائية

إن كان هناك من سبق له أن مثل حرفتنا في دول أخرى.

كم تقضي من الوقت في صناعة البندقية الواحدة؟

تتطلب صناعة القطعة الواحدة ما بين 10 أيام إلى أسبوعين، هذا النوع من العمل يحتاج مجهودا كبيرا وتركيزا، فثمة الكثير من الدقة التي تتطلبها صنعة هذه البنادق المركبة والمعقدة إلى حد كبير.

هل هناك متعلمون في ورشتك؟

يشتغل معي فقط ابني «صالح»، لقد بدأ الدراسة في الجامعة ولم يكملها، وقد تعلم الحرفة بشكل جيد.

لماذا لم تفكر في خلق فضاء كبير تتعلم فيه الأجيال الجديدة هذه الحرفة التي يبدوأنها نادرة جدا في المغرب؟

يحتاج مثل هذا المشروع إلى ميزانية كبيرة وإلى دعم مالي مهم وهذا غير متوفر لحد الساعة.

هل تقتصر مهمتك على إنتاج بنادق جديدة أم تمتد إلى إصلاحها أيضا؟

البنادق الجديدة التي أصنعها تكون جيدة بالأساس وتصلح لفترة طويلة، لكن أغلب البنادق التي تتعرض للعطل يكون السبب في ذلك هوتجاوز الحد المعقول من البارود، فكثير من الناس يحبون أن ينتشوا بسماع طلقة مدوية إرضاء للجمهور فيستعملون كمية زائدة من البارود.

ماذا عن جودة الجعبة التي يغمرها البارود؟

بالنسبة للجعبة الجديدة فهي تتميز بالصلابة والمتانة، لكنني أحيانا أعثر على جعب «رومية» استقدمت في الغالب من فرنسا يعود تاريخها إلى القرن الخامس





لوحة لفرسان مغاربة يحملون بنادق البارود



من مواسم التبوريدة بالمغرب

عشر ولا زال يتمتع بجودة أصيلة رغم مرور سنوات طويلة.

◆ نلاحظ في ورشتك عددا من الشواهد المعلقة على الجدار.

نعم إنها شواهد حصلت عليها من مشاركات عديدة داخل البلاد، من بينها: تنويه من مندوب الصناعة التقليدية بإقليم آسفي، وتنويه من والي جهة دكالة عبده، وشهادة تقديرية مع تنويه من غرفة الصناعة التقليدية، وشهادة تقديري من وزارة الصناعة التقليدية، إضافة إلى شهادات المشاركة ضمن عدد من المعارض الإقليمية والجهوية والوطنية.

◆ هل يمكن أن تشرح لنا كيف تتم عملية صناعة البندقية؟

نعم فيما يلي تلخيص لأبرز مراحل صناعة البندقية التقليدية:

1 -الخطوة الأولى تتعلق بقضيب حديدي مجوف–الجعبة– وأحرص أن تكون الجعبة رومية أي من الفولاذ الرفيع وهذا النوع نادر يتم استيراده من خارج البلاد.

2 -في المرحلة الثانية أصنع بوسائلي الخاصة باقي القطع الحديدية المرافقة للجعبة وهي الزناد والحاضي والبزبوز والقرص والكرة والدراع والمدك والرباطي والخواتم. ويتم إدخال هاته القطع مع الجعبة إلى صهريج كهربائي يعمل على تبييضها«عملية النيكلاج والكروماج، أي طلاء المادة بالنيكل والكروم».

3 -في المرحلة الثالثة أحضر هيكلا خشبيا يضم هذه الأجزاء بالجعبة يسمى«السرير»ويصنع من خشب احمر خاص يدعى« عود لتر».

4 -في المرحلة الأخيرة أحكم السرير حول الجعبة بواسطة خواتم فضية وأزين السرير بالصباغة وببعض القطع الحديدية وأخرى من«الباكيليت» تعطي العناصر اتساقها وانسجامها وتمنح للبندقية روعة خاصة.

◆ بارك الله في اليد التي تصنع هذا الجمال، هل لك من كلمة أخيرة؟

إن حرفة من هذا النوع ليست بالهينة. فصناعة بندقية واحدة تكلفني وقتا طويلا من العمل المتواصل. ولعل عددا هائلا من الخيالة يفدون علي في بلدية سبت جزولة من شتى أنحاء المغرب لاقتناء هذه البنادق.إلا أن هذا النوع من الصناعة يعاني هوالآخر مشاكل عديدة أبرزها غياب الدعم وندرة المواد وعدم اهتمام الجهات المسؤولة. كل ذلك يؤدي إلى بعث اليأس والإحباط في نفسية الصانع. لذا نأمل أن تحظى صناعة البنادق على غرارها من الصناعات التقليدية الأخرى بالاهتمام اللازم، ونأمل ختاما أن تتضافر الجهود لإنعاش هذا القطاع، ليس من أجلي، فانا قد قضيت دهرا طويلا من العمل المتعب والممتع أيضا، ولكن من أجل أن تستمر هذه الحرفة النادرة التي أخاف أن تنقرض يوما ما ◆